

محورية العالم الثقافي في عملية الإصلاح من منظور مالك بن نبي

بقلم: د. عبد العزيز بوالشعير

جامعة محمد المين دباغين سطيف 2

ملخص: تهدف هذه المقالة إلى تسليط الضوء على إشكالية الإصلاح والتجديد في الفكر العربي المعاصر من خلال مقارنة مالك بن نبي، حاولنا عبرها عرض مختلف الطروحات والمشاريع الفكرية المعاصرة في مقاربتها لهذه العملية. ثم كشفنا عن الجذور التاريخية لأزمة العالم الإسلامي، بيّنا فيها أسباب سقوط الحضارة الإسلامية، وكيفية النهوض بها من جديد، وذلك بالتركيز على بناء المنظومة الثقافية، التي تؤهل الأمة لاستئناف دورتها الحضارية من جديد. فبناء المنظومة الثقافية للأفراد والمجتمع تسمح بتجاوز وضعهم الراهن على مستوى الاختلالات العقدية والأزمة الفكرية والتشوّهات المعرفية والقصور المنهجي، وحالات الوهن والسلبية واللافعالية في السلوك والأداء. لأنّ جل الأمراض التي يعانيها العالم الإسلامي، إنما هي مظاهر لأزمة وليست جوهرها لها، فجوهرها إنما يعود بنظر ابن نبي إلى اختلال في ثقافة الإنسان واضطراب في منظومته الفكرية، وقصور في منهجيته، ووهن وفوضى في سلوكه.

Résumé:

Cet article vise à jeter de la lumière sur la problématique de la réforme et du renouveau dans la pensée arabe contemporaine à travers l'approche Malik Bennabi. Nous avons essayé, à travers laquelle, d'exposer les diverses propositions et les projets intellectuels contemporains dans ses approche à ce processus. Puis, nous avons découvert les racines historiques de la crise du monde islamique, où nous avons montré les raisons de la chute de la civilisation islamique, et comment la promouvoir à nouveau, en se concentrant sur la construction du système culturel, qui qualifie la nation à reprendre son tour de civilisation à nouveau. La construction du système culturel pour les individus et la société permet de surpasser le statut quo au niveau des déséquilibres de croyance, de la crise intellectuelle, des distorsions cognitives, de l'inaptitude méthodologique, des cas de faiblesse et de passivité et d'inefficacité dans le comportement et la performance. Parce que la plupart des maux dont souffre le monde musulman, ne sont que

des manifestations de crise, mais pas son essence, car son essence réside, selon Bennabi, dans le déséquilibre de la culture humaine, le désordre de son système intellectuel, l'inaptitude de sa méthodologie, et dans la faiblesse et le chaos de son comportement.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، التجديد، الثقافة، النهضة، الإنسان، الحضارة، التغيير، التربية، الأزمة.

تمهيد: شغلت إشكالية الإصلاح والتجديد في العالم العربي والإسلامي اهتمام الباحثين والمفكرين والمصلحين منذ ما يقارب القرنين ونصف. وتباينت الطروحات حول كيفية إصلاح واقع العالم الإسلامي؛ لتباين زوايا النظر إلى جوهر المشكلة التي تعاني منها الأمة الإسلامية منذ سقوط حضارتها. فإذا كان البعض يرى في الإصلاح السياسي جوهر المشكلة، فإن البعض الآخر يعتقد أن الخلل الذي أصاب الأمة يكمن في العقيدة، ولهذا ينبغي أن يبدأ الإصلاح من هذه العقيدة، ويذهب فريق ثالث إلى حد اعتبار المشكلة التي تعانيها الأمة الإسلامية عائداً إلى عدم مقدرتها على الإصلاح والتجديد من ذاتها، بل لا بد لها من استيعاب النموذج الحضاري الغربي، فهو وحده الكفيل بإحداث النقلة النوعية لحاضر العالم الإسلامي، وإخراجه من وهدة التخلف والانحطاط.

وتباين هذه الطروحات ساهم بشكل أو بآخر في تأخير عملية الإصلاح والتجديد، نظراً لخلل في الطرح، وغيبش في الرؤية، وقصور في الفهم، وانحراف في الفكر.

وهذا ما ذهب إليه الأستاذ مالك بن نبي في معظم تحليلاته وتفسيراته لإشكالية الإصلاح والتجديد، فهو يرى أن الخلل السياسي والعقدي وجل الأمراض التي تعانيها الأمة الإسلامية، إنما هي مظاهر لأزمة وليست جوهرها، فجوهرها يعود إلى خلل في ثقافة الإنسان واضطراب في منظومته الفكرية، وقصور في نسقه المعرفي الذي تشكل في سياق تاريخي وحضاري، أسهم بشكل أو بآخر في وصول الأمة الإسلامية إلى ما هي عليه الآن.

لهذا ذهب إلى القول بأن عملية الإصلاح والتجديد إنما تتمحور حول بناء العالم الثقافي للإنسان، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ينبغي أن نحدد بدقة جوهر الإشكاليات الفرعية الذي تتفرع عن الإشكالية الجوهرية وهي إشكالية الأزمة الثقافية. زيادة على ذلك، يرى ابن نبي أننا لا يمكن أن نتحدث عن كيفية الإصلاح والتجديد، إلا إذا تحدثنا عن كيفية سقوط وأفول الحضارة الإسلامية. والذي يعجز أو يخطئ في تشخيص العلل والأمراض، سيعجز أو يخطئ-ولا شك-في وصف علاج هذه العلل ومداواتها.

وانطلاقاً من هذه الفرضية ارتأينا طرح الإشكالية على النحو الآتي:

- إلى أي حد كان الخلل الذي أصاب العالم الثقافي سبباً في سقوط الأمة الإسلامية؟ وإلى أي حد يساهم في إعادة إصلاحها وتجديدها؟
 - ما هي الجذور التاريخية لحوث الأزمة الثقافية؟
 - كيف تفاعل معها رجال الإصلاح والتجديد في العصر الحديث؟ وأين يكمن الخلل في تفاعلهم؟
 - ما هو جوهر الأزمة الحقيقية للعالم الإسلامي كما يتصوره ابن نبي؟
 - كيف يتصور مالك بن نبي عملية الإصلاح والتجديد؟
- أولاً: في الجذور التاريخية للأزمة من منظور مالك بن نبي:

يعتقد مالك بن نبي أن أزمنا الحضارية الراهنة إنما تعود جذورها إلى فترة الرعي الأول من الجيل الذي رباها الرسول ﷺ، الجيل الذي منحه القرآن الدفعة الإيمانية الأولى لتمثل قيم القرآن والالتزام بسننه ﷺ، لكن ما لبثت هذه الدفعة أن بدأت في الفتور، وبدأ نورها يخفت، وروحها تصاب بنوع من الخمول والخمود، وظهرت في المجتمع الإسلامي بعض أشكال التعارض الداخلية بلغت قمته في بعض الفترات، بدأت أعراضها ومضاعفاتها تطفو على السطح "لقد بلغت عوامل التعارض الداخلية قمته، وانتهت إلى وعدّها المحتوم وهو

تمزق عالم واهن، وظهور مجتمع جديد ذي معالم وخصائص واتجاهات جديدة، فكانت تلك مرحلة الانحطاط، إذ لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارية، بل أضحت عناصرها حامدة ليس لها فيما بينها صلة مبدعة¹.

ففي اعتقاد مالك بن نبي أن المجتمع يبلغ هذه المرحلة عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، فتكون بذلك نهاية دورة حضارية، وهجرة حضارة إلى بقعة أخرى" وفي البقعة المهجورة يفقد العلم معناه كله، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان².

فإشعاع الروح إنما يعود لعمل النبي ﷺ، الذي أدرك سرّ قيمة الفضائل الخلقية، باعتبارها قوة جوهرية في نشوء وتكوين الحضارات، لكن أوضاع القيم - كما يرى علماء الاجتماع قد تنقلب من عصر إلى عصر، وتنقل المجتمع من حالة إلى حالة، فأوضاع القيم "تنقلب في عصور الانحطاط لتبدوا الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، ولأنّ الروح، والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة، انحطت، لأنّ من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض³.

وكان من نتائج انطفاء أو خفوت شعلة الروح، أن عرف العالم الإسلامي أول انفصال في تاريخه، وكان هذا في معركة صفين عام 38هـ؛ إذ كان يحمل بين جنبه بعد قليل من سنوات ميلاده تعارضا داخليا، كانت حمية الجاهلية، تصطرع مع الروح القرآنية" ومنذ

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط5 (الجزائر: دار الفكر، 1986)، ص 29-31.

² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 28-30.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 28.

ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي، على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي نبض بها قلبه المؤمن"⁴.

لقد كان لهذا الانفصال الأول في تاريخ العالم الإسلامي أثره الكبير في حدوث تفكك المجتمع، وتصعد بنتيه الداخلية، وتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية؛ حيث ظهرت أولى بذور الفردانية بدل الجماعية، والأنانية بدل الإيثار، والسلبية في التفاعل مع القرآن والسنة والواقع بدل التفاعل الإيجابي معهما. وبدل أن يتم البحث عن الجوهر المفقود، ألا وهي إعادة نظم عقد الجماعة واسترداد الإنسان لذاته المستلبة من قبل قيم الآخرين وثقافتهم، ازداد التخطيط والضياع عندما حصلت العودة إلى الشخصية الفاعلة"⁵.

تلك الفردانية التي طبعت الفرد والمجتمع، يعتبرها مالك بن نبي من الأمراض التي فتكت بالمجتمع، ولهذا يشير إلى دور الجماعة في التاريخ؛ إذ عليها يبنى كل عمل إيجابي فعال في التاريخ "فطاقات الفرد لا قيمة لها إن لم تنظم وتوجه من خلال الجماعة، وإذا كان للإسلام دور علمي، والمسلمون مسئولون عن تقدم مجتمعاتهم وإنقاذ العالم، فإن ذلك لن يتم إلا بتضافر الجهود واجتماعها وتنظيمها حتى يكون من اشتراكها أفضل دور ممكن للمجتمع في التاريخ"⁶.

فالطاقة الفردية غير مجدية، إذا لم تكن خاضعة لنظام معين، وهي لا تحمل أية قيمة، إذا لم تتم في إطار جماعي، تتضافر فيه جهود أفراد المجتمع حتى يتسنى لهم أداء دورهم وحمل أمانتهم وتبليغ رسالتهم الملقاة على عاتقهم، فطاقة الفرد "الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكليفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه

⁴ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 28.

⁵ أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ط2 (بيروت: دار النفائس، 1986)، ص 88.

⁶ أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 100-101.

الطاقة، وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة، إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان"⁷.

ولهذا يربط مالك بن نبي في تحليلاته بين الرؤية النفسية الزمنية في تشخيص وعرض الأصول التاريخية لأزمة العالم الإسلامي وبين العمليات الحيوية البيولوجية، ليصل في الأخير إلى الوقوف على آليات وعلل تحلل كل جسم وبالتالي تحلل المجتمع؛ حيث يبنه إلى أن " التعارض الداخلي بين أسباب الحياة والموت في أية عملية حيوية (بيولوجية) هو الذي يؤدي بالكائن إلى قمة نموه ثم إلى نهاية تحلله، أما في المجال الاجتماعي، فإن هذه الحتمية محدودة بل مشروطة، لأنّ اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته ويسعى نحو غاياته"⁸. فلكي ندرس ظاهرة الحضارة وكيفية ظهورها وتألقها، وجب علينا ربطها بظاهرة الانحطاط، والعكس صحيح، ولهذا فالأمة في أمس الحاجة إلى أن تتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقرها وانحطاطها في التاريخ يقول ابن نبي.

ويخلص في تحليلاته لجذور الأزمة إلى الوقوف على عنصر الإيمان وماله من أثر في تحريك التاريخ، ودفع عجلته إلى الأمام ليتناغم الإنسان مع فكرته ومبدئه ومثله الأعلى الذي ينطلق منه، ويسعى إلى تجسيده في أرض الواقع. هذا الإيمان في حقيقة الأمر يقع بين حدين، حد الإشعاع؛ فيكون بذلك عاملا مساعدا على التحضر، وحد الجذب، فيكون مشبها ومساهما في عملية التقهقر "أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع؛ أعني نزعة فردية، فإنّ رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها، إذ يصبح الإيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجبا تهم ومسؤولياتهم"⁹.

⁷ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3 (الجزائر: دار الفكر، 1986)، ج1، ص107.

⁸ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص28.

⁹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص32.

إن التغيير الذي طرأ على المجتمع في التاريخ، إنما هو تغيير طرأ على الإنسان ذاته، الإنسان المتحضر الذي فقد همته المتحضرة، فأعجزه فقدها عن التمثيل والإبداع والاستمرارية، ولهذا ليس من المعقول أن نبحت عن النظم، بل حري بنا أن نبحت عن العوامل الإنسانية الممثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت، التي طبقوها في مرحلة زمنية معينة، هي مرحلة ما قبل الموحدين و"يُؤرخ لتلك الظاهرة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين، الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها (...). ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحدين"¹⁰، لأنّ الترتيب الأساسي الذي كان سببا في البناء والتشكيل قد تحلّل، فتحلّلت معه الحياة الاجتماعية وأخلت مكانها للحياة البدائية. فإنسان ما بعد الموحدين اتصف بصفات السلبية؛ حيث اتسمت ذهنيته بالذرية، والتزمت، والنزوع نحو المديح، ووسمت ثقافته بالجدل والحرفية والتشبث بأذيال الماضي والتحليق في الخيال، وهو الأمر الذي فتح المجال للمستشرقين ومنهم "جب" إلى حد اتهام الإنسان المسلم بصفة الذرية (Atomisme)، واعتبارها خاصية فطرية من خواص الإنسان والفكر العربيين.

ثانيا موقف مالك بن نبي من حركة الإصلاح الحديثة: يرى مالك بن نبي أنّ الأزمة الحضارية التي لحقت العالم الإسلامي، دفعت ببعض رجال الإصلاح إلى محاولة معالجتها، بغية الخروج من حالة التخلف والانحطاط والضعف، إلى حالة التحضر والرقى والقوة. إلاّ أنه يقف موقفا واعيا نقديا تجاوزيا من طريقة طرح الحركة الإصلاحية الحديثة لأزمة العالم الإسلامي، وكيفية معالجتها، فيقبل بعض أفكارها وتصوراتها ويرفض بعضها الآخر.

فإذا أخذنا الحركة الوهابية مثلا كمنطلق لحركة تجديد الأمة، والتي يكون قد مضى على تجربتها ما يزيد على قرنين ونصف، وإذا استحضرنّا تجارب مجتمعات أقل منا شأنًا من حيث تجربتها التاريخية ومرجعيتها الفكرية وإمكاناتها الحضارية البشرية والمادية والإستراتيجية أدركنا الهوة الفاصلة بين التجريبتين؛ بدليل أنّ هذه التجارب انطلقت معنا - كما يرى مالك بن نبي -

¹⁰ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

أو جاءت بعدنا، تمكنت من اختصار الزمن، وبناء قدراتها الذاتية، والبروز على مسرح الأحداث كقوة فاعلة يحسب لها حسابها في المعترك الحضاري¹¹.

ورغم انتقاده لمعظم حركات التجديد في العالم الإسلامي، إلا أنه يعتبرها أساسا هاما في إصلاح ما يعانیه العالم الإسلامي من استعمار وفساد، فعند حديثه عن التجربة الوهابية يقول "الوهابية تعني في نظري الفكرة الإسلامية الوحيدة التي تصلح بما فيها من طاقة متحركة لتحرير العالم الإسلامي المنهار منذ عهد ما بعد خلافة بغداد"¹²، فالحركة الوهابية في اعتقاده ركزت على فكرة التوحيد، وتنزيه العبادة مما لحق بها من تحريفات وتشويهات أفسدت عقيدة المسلمين.

وبعد الحركة الوهابية بزمن غير قصير، يظهر في العالم الإسلامي رجل ثائر زاجر في وجه الاستعمار، وفي وجه الواقع الإسلامي المعتل. إنه صوت "جمال الدين الأفغاني" فواقع العالم الإسلامي -يقول ابن نبي- كان أحوج ما يكون إلى رجل ذي فكر ثوري "كفكر جمال الدين يدعو إلى الهدم من أجل إعادة البناء، أو على فكر منهجي يجري عمليات التشذيب الضرورية لتحرير النظام القائم من أوزار التقاليد، على أساس منهجي مرسوم، وكان لا بد أولا من إحصاء تلك العمليات الضرورية بأن يميز المصلحون خبث التقاليد من طيبها"¹³.

ويقيم مالك ابن نبي جهود جمال الدين الأفغاني في الإصلاح ويعتبرها ذات أهمية، وهذا لما حققته في الواقع من نجاحات في بعض الميادين على اقل تقدير "وهكذا كانت كلمة جمال الدين الأفغاني، فقد شقت كالمخراش في الجموع النائمة طريقها، فأحيت مواثها، ثم

¹¹ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص 65.

¹² مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، الطالب، (بيروت: دار الفكر، 1969)، ص 150.

¹³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 57-61.

ألقت وراءها بذورا لفكرة بسيطة، فكرة النهوض... بل غيرت ما بأنفس الناس من تقاليد، وبعثتهم إلى أسلوب في الحياة جديد¹⁴.

وإذا لم تكن جهود جمال الدين الأفغاني ثمرة إلى الحد الذي كان يتوق إليه العالم الإسلامي، فإنّ قيمتها الأساسية تكمن في تلك الروح المتطلعة إلى التغيير "وإذا لم يكن جمال الدين قائداً أو فيلسوفاً للحركة الإصلاحية الحديثة، فلقد كان رائدها حين حمل ما حمل من القلق، ونقله معه أينما حلّ، وهو القلق الذي ندين له بتلك الجهود المتواضعة في سبيل النهضة الراهنة، وكان رائدها أيضاً حين جاهد في سبيل إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي"¹⁵.

وإذا كان جمال الدين الأفغاني قد واجه مشكلة العالم الإسلامي من زاوية سياسية، فإنّ تلميذه الشيخ محمد عبده سينظر إليها من زاوية اجتماعية؛ حيث كان يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح، يجب أن يبدأ خطواته الأولى من (الفرد)، ولقد وجد أساس هذه الفكرة في كتاب الله؛ حيث قال تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد، الآية: 11).

في هذه الآية نجد أن نفس الفرد هي العنصر الجوهرية في كل مشكلة اجتماعية، فكيف نغير هذه النفس في تصور الشيخ محمد عبده؟ تغيير النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، وهو ما ذهب إليه محمد عبده. بل هو من شأن منهج التصوف، أو بعبارة أدق، هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد، ويمكن أن نسميه علم تحديد الصلة بالله¹⁶.

¹⁴ مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين ط4 (الجزائر: دار الفكر، 1987)، ص24.

¹⁵ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص55.

¹⁶ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص52-55.

وفي سياق نقد مالك بن نبي للحركة الإصلاحية، نجده يركّز على ضرورة تغيير النفس البشرية، بدل النظم السياسية، فهو يلقي باللائمة على رجال الإصلاح، ويرجع عدم مقدرتهم على الانتقال بالعالم الإسلامي من حالة الركود إلى حالة التحضر، إلى تجاهل فكرة تغيير النفس البشرية، ولهذا نجده يقرن عملية بناء الحضارة وتغيير الواقع بمقدار تغييرنا لعالمنا الثقافي، فيذهب في كتابه، وجهة العالم الإسلامي إلى القول: "أنّ الحركة الإصلاحية، لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة الوظيفة الاجتماعية للدين... فإذا ما أريد للنهضة أن تبرز إلى عالم الوجود علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها"¹⁷.

فكل محاولة-في رأيه- لإعادة بناء حضارة الإسلام يجب أن تقوم أولاً وقبل كل شيء على أساس سيادة الفقه الخالص على الواقع السائد الذي نشأ عن صفين، ولا شك أن هذا يقتضي رجوعاً إلى الإسلام الخالص.

هذا عن مجمل أفكار وطروحات ومنهج الإصلاح في الحركة الإصلاحية الحديثة، أما حركة الحداثيين كما يسميهم مالك بن نبي، فإنّ تشخيصهم لأزمة العالم الإسلامي، وبالتالي طريقة ومنهج الإصلاح في تصورهم وممارساتهم لم تغفل من انتقاداته، فالمحدثون يشكلون التيار الثاني من تيارات الإصلاح، وإذا كان تيار الحركة الإصلاحية مشدوداً إلى أصوله وهويته، فإنّ تيار الحداثة مشدود أكثر بالآخر أو بالغرب.

لقد حاول أصحاب هذا التيار استلهاهم فلسفتهم التغييرية من فلسفة أوروبا الاستعمارية ذات القيم الجذبية العدوانية، لقد تساءل ابن نبي "فكيف يتأتى للعالم الإسلامي أن يبحث عن إلهام فلسفته الإنسانية فيها وراء تقاليد العريقة؟ إنّ حديثنا عن إنسانية أوروبا لا يكون إلاّ حديثاً عن نزعة إنسانية جذبية دون إشعاع، وفي هذه الحالة نراها تعني إنسانية أوروبية في

¹⁷ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 62.

الداخل وإنسانية استعمارية في الخارج، وهذه الأخيرة قائمة على أقبح المعادلات السياسية وأشنعها، فالإنسان في عرفها مضروباً في المعامل الاستعماري يساوي مستعمراً¹⁸. وهذا التحليل يكشف ولا شك عن خصوصية كل حضارة وكل مجتمع، فالجتمعات قد تتقاطع في بعض العناصر والأفكار، ولكنها لن تصل إلى درجة التماثل، كما أن الحضارة لها دورات زمنية ومكانية، تحكمها سنة التداول. فالدورة الحضارية التي تعيشها أوروبا الآن، تختلف عن دورتنا الحضارية، فإذا كانت هي تعيش مرحلة تألق وقوة، فالعالم الإسلامي يعيش مرحلة ما قبل الحضارة، فكيف يتحرك العالم الإسلامي إذن تحت أوزار القرون الخالية، وأثقال التقاليد البالية، والعادات المتخلفة المتراكمة؟

يصف مالك بن نبي المحدثين بأنهم لا يملكون فكرة النهضة، وهي ليست من أولويتهم" أما المحدثون فقد انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها، فأصبحت ثانوية، لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا في الميدان السياسي فإنّ المسألة في نظر المحدثين لم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامي وبعثه، وإنما كان انتشاره من فوضاه السياسية الراهنة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل ترى مشكلة النظم الأوروبية¹⁹. وهذا القول يوحي إلينا بأنّ الحركة الحديثة ليس لها في الواقع نظرة محدّدة، لا في أهدافها ولا في وسائلها، والأمر لا يعدو أن يكون غراماً بالمستحدثات، فسييلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم زبونا مقلداً لحضارة غربية تفتح أبواب متاجرها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها، مخافة أن يتعلم التلاميذ وسائل استخدام مواهبهم في تحقيق مآربهم.

¹⁸ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 20.

¹⁹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 71.

ودعاة هذا الطرح يلصقون أسباب عطلهم بالاستعمار، بغية تعليل عجزهم، والهروب من مسؤولياتهم الحقيقية، فهم لم يبحثوا عن الأسباب الداخلية لعجزهم. والتي منها يبدأ كل إصلاح أو تغيير.

لقد حاول بعض زعماء الحركة الحديثة اعتماد طريقة الاقتباس بدل الإبداع" وها هو العالم الإسلامي قد وقف منذ قرن يواجه مشكلة الاقتباس، مدفوعا بحركة نخضته إلى الأخذ بكل جديد أو مقتبس، على حين تشده إلى الوراء أشكال من التقاليد البالية..²⁰.

كل هذا أنتج في الأخير عوامل القلق والعجز، فبعض هذه العوامل متصل بمسألة الاقتباس من الحضارة الغربية، فهو يواجهنا بمشكلة من طراز عضوي، تاريخي، وبعضها الآخر يتصل بموقف المسلم إزاء مشكلات الحياة الراهنة، فالمشكلة على هذا نفسية منطقية. لقد تجاهل أصحاب الاقتباس أن الحياة الاجتماعية محكومة بسنن ونواميس خاصة بها، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية. "وكل ما يسوده من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسية، إنما هو نتيجة ذلك الخليط من الأفكار الميتة، لكل البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة، تلك التي يتعاضم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوربا"²¹.

هذا الخلط والفوضى في الأفكار هما نتيجة لذهنية معتلة، غير متوازنة ذهنية إنسان ما بعد الموحدين، الذي أصيب بنوعين من الذهان (psychose)، فهو إما أن ينظر إلى الأشياء والمشكلات على أنها سهلة ميسورة، وهذا النوع يقود ولا شك إلى نشاط أعمى، وإما أن ينظر إليها (المشكلات) على أنها مستحيلة، فيصاب نشاطه بالشلل، وإذن "فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت هذه العلاقة عمي النشاط واضطرب وأصبح جهدا بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا مستحيلا،

²⁰ مالك بن نبی، وجهة العالم الإسلامي، ص 80.

²¹ مالك بن نبی، وجهة العالم الإسلامي، ص 81.

وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا هو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها، وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقديرها أو حطا من قيمتها"²².

ويواصل مالك بن نبي تشخيصه لذهنية إنسان ما بعد الموحدين تشخيصا نفسيا، يقف من خلاله على القواعد التي قام عليها هذا الذهان والتي يحددها في الآتي:

- لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون.

- لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.

- لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا.

هذه القواعد في حقيقة الأمر أساطير حجبت على الإنسان رؤية الأشياء كما هي، بنظرة صحيحة من غير قصور ولا غرور، يقول مالك بن نبي عن الأسطورة الأولى ف"نحن جاهلون هذا واقع وهو أثر من آثار الاستعمار، ولكن ماذا تفعل الدوائر المتفككة في بلادنا؟ ماذا تفعل بثقافتها وهي السلاح الأساسي العاجل ضد الأمية العامة؟... في الجزائر فقليل هم المسلمون الذين يفكرون على اختلاف مهنتهم في تربية أمتهم"²³.

أما عن الأسطورة الثانية، وهي أسطورة الفقر، فهي بنظره ليست بأقل خطرا "وحسبنا أن ننظر إلى ما يملك الفرد المسلم الثري من مال لنرى مدى فاعليته الاجتماعية لقد زاد أغنياء المسلمين على فقراهم في العطل على الرغم مما يملكون من ثروات وكثير من أولئك الأغنياء لا يهتمون برعاية طفل مسلم لتربيته تربية عملية أو فنية، بل لا يهتمون برعاية عمل ذي فائدة عامة"²⁴.

وحديثه عن الأسطورة الثالثة، فهي التي كثيرا ما تدرع أصحابها في تبرير فشلهم، وهروبهم من مسؤولياتهم وعدم اعترافهم بدورهم ومكانتهم، فهم لا يقدرّون حجم تقصيرهم، وجوهر مرضهم، إنهم يرجعون تخلفهم إلى الاستعمار "ويهمنا أن نذكر هنا أنه فيما يتصل

²² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 89.

²³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 90.

²⁴ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 94، 107.

بالأسطورتين اللتين فرغنا من حديثهما لا يأتي عامل الكف خارج الذات، بل هو سبب داخلي، ناتج عن نفسية الناس وأذواقهم وأفكارهم وعاداتهم، أي عن كل ما يكون عقل ما بعد الموحدين، وهو في كلمة واحدة ناتج عن قابليتهم للاستعمار²⁵.

ويخلص مالك بن نبي إلى أن الاستعمار ليس هو السبب الأول الذي يحمل عليه عجز الناس وخمولهم في مختلف بلاد الإسلام، وأنه لكي نصدر حكما صادقا عليه ينبغي أن نتقصى الحركة الاستعمارية من أصولها، لا أن نقف أمام حاضرها أي أن ننظر إليها بوصفنا علماء اجتماع لا يوصفنا رجال سياسة "إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها هي: أنه لكي نتحرر من الاستعمار يجب أن نتحرر أولاً من سببه وهو القابلية للاستعمار. وعليه فإن المشكلة الرئيسة هي لكي نتخلص من الاستعمار يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار"²⁶.

وتحليلات مالك بن نبي إنما تصب في الأخير لتتوافق مع المنطق القرآني الذي يؤكد على لوم الذات ومحاسبتها، قبل إلقاء اللوم على الغير وتحميله مسؤولية الضعف والهوان، قال تعالى "قل هو من عند أنفسكم".

ويأتي حديثه عن هذا المنطق القرآني ردا على أولئك الذين يعتقدون أن نقل الأفكار والوسائل والبرامج من العالم الغربي، كفيل بتحقيق التقدم، متجاهلين الكثير من الحقائق العلمية والاجتماعية، والتي تتمحور حول فكرة تمايز المنظومتين الإسلامية والغربية، فلكل أمة منظومتها المعرفية والفكرية والنفسية والسياسية والحضارية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنقل هذه المنظومة من حال ووضع أمة إلى حال ووضع أمة أخرى هكذا بصورة بسيطة وغير مدروسة "فهناك شيء من الغرابة في الحالة التي تفحصها، مما يدفعنا إلى تفهم كيفية سيرها (وآلياتها)، ومن أجل هذا يجب أن نعرف المقياس العام لعملية الحضارة، ليلقي لنا ضوء

²⁵ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 90.

²⁶ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 94، 107.

كاشفا على السلبية النسبية، وانعدام الفاعلية في جهود المجتمع الإسلامي، إنّ المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها²⁷.

هذه الغرابة التي يشير إليها ابن نبي نابعة مما لاحظته في العالم الإسلامي الذي أراد أن يجتاز المرحلة التاريخية التي يمر بها، بمعنى أراد إنجاز مهمة تركيب الحضارة في زمن معين، دون أن يدرك أن عملية الاقتباس شبيهة بعمل الكيماوي في طريقتة، التي تبدأ بعملية تحليل المنتجات التي يريد أن يجري عليها بعد ذلك عملية التركيب، ولهذا "فإذا سلطنا هنا هذا المسلك قررنا أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية:
ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت.

فالصيغة صادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري، إذا ما درسنا هذه المنتجات، حسب طريقة الجمع المستخدمة في الحساب، فننتهي حتما إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية:
حضارة = إنسان + تراب + وقت²⁸.

ثالثا: في حقيقة أزمة العالم الإسلامي: بعدما يتحدث مالك بن نبي عن الجذور التاريخية للأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي، وبعدها يعرض لنا مجمل جهود الحركة الإصلاحية التأسيسية منها والتغريبية، وبعدها يقدم رؤية نقدية استشرافية لكل تلك الجهود الإصلاحية، يصل بنا إلى تشخيص الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي بنوع من التحديد والضبط، ويكون ذلك من خلال جملة من الأسئلة المحورية، التي تضبط منهجية طرح الإشكالات اعتقادا منه أن الكثير من تحليلات العلماء والمفكرين لا تتوفر على آلية ضبط إشكاليات الإصلاح والتحديد، فالبعض منها ينطلق من أعراض الأزمة ويحاول علاجها، فيكون جهده كالطبيب الذي يقدم مسكنات المرض ولا يستأصله من الجذور. فعملية الإصلاح والتحديد لن يتم لها

²⁷ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 74.

²⁸ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 49-50.

النجاح إلا إذا استطاعت الأمة أن تحدّد بدقة أزمته الحقيقية، وبالتالي تكون مؤهلة لتقديم العلاج الشافي والكافي لها "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الإحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"²⁹.

ومالك بن نبي طرح مشكلة الأمة في هذا السياق عندما أكد أن مشكلة الإنسان عموماً هي مشكلة الحضارة، وأي تفكير في حل أزمت هذا الإنسان لا يستوعب هذه الحقيقة، لن يزيد أوضاعه إلا تعقيداً وتدهوراً. يقول أحد المهتمين بطروحات ابن نبي رحمه الله أنه "وضع الأزمة والنهضة في إطارهما الفكري والمنهجي الصحيح، عندما نبه إلى ضرورة النظر إليهما على أنهما ليستا سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها، بل على كونهما ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرها وربما يهدينا إلى قانونها وسنة الله فيها. والتاريخ يرشدنا إلى القانون الذي يحكم بناء وسقوط الحضارات من خلال الأسئلة المنهجية التالية:

- ظاهرة النهضة كيف تتم؟ وما هي السنن التي تحكم سيرها؟ وكيف يتم التحكم التسخيري أو الوظيفي في هذه السنن؟

- وظاهرة الأزمة كيف تحدث؟ وما هي السنن التي تحكم سيرها؟

وقد حاول مالك ابن نبي في دراساته كلها، تأصيل منهج فكري يتمحور حول أربعة أسئلة هي: حضارتنا الإسلامية: كيف تأسست؟ وكيف تطورت؟ وما النواظم أو السنن التي حكمت ذلك كله؟ وكيف ضعفت؟ وكيف انهارت؟ وما السنن التي فعلت فعلها في ذلك كله؟ وكيف نعيد تجديد بنائها؟، وما هي السنن التي تحكم إعادة البناء؟

هذه الأسئلة الجوهرية على ضوئها يمكن تحديد جوهر الأزمة التي يمر بها العالم الإسلامي، لم تكن واردة في أدبيات المفكرين والعلماء بالدرجة التي تسمح بإحداث النقلة النوعية في واقع العالم الإسلامي، لأنّ الفكر الإسلامي كان "عاجزاً عن إدراك حقيقة

²⁹ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 21.

الظواهر، فلم يكن يرى منها سوى قشرتها، وأصبح عاجزا عن فهم القرآن، فاكتفى باستظهاره حتى إذا اتهمت منتجات الحضارة الأوروبية على بلاده اكتفى بمعرفة فائدتها إجمالا دون أن يفكر في نقدها. ومن ثم وجدنا هذا المسلم لا يكثر بمعرفة كيف تم إبداع هذه الأشياء، بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها"³¹.

وفي هذا السياق دائما يصف مالك بن نبي شكل النهضة الإسلامية الحديثة بأنها خليط من الأذواق، ومن المحاولات ومن التذبذب، ومن مواقف التدين أيضا، فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من أشياء وحاجات، دون أن تبحث عن الأفكار والوسائل"³²، ونسيت النهضة الإسلامية الحديثة أنه "ليس يكفي مجتمعا لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات، بل ينبغي أن تكون له مبادئ ووسائل تساعده على الخلق والإبداع"³³. لأنّ خلافاً قد وقع في تحديد المشكلة التي يمر بها العالم الإسلامي، فالبعض اعتقد أنّ مشكلة المجتمع تتمثل في غياب حقوق أفرادها، فراح يقدم المطالبة بالحقوق على القيام بالواجب، فحدث اختلال في المعادلة الاجتماعية ونحن في الحقيقة "لسنا إذن بحاجة إلى نظرية تهتم بالحقوق على حدة، أو بالواجب على حدة، فإنّ الواقع الاجتماعي لا يفصلهما، بل يقرهما، ويربط بينهما في صورة منطقية أساسية، هي التي تسير ركب التاريخ"³⁴.

إنّ بناء الحضارة أو إعادة بنائها إنما يكون على شاكلة الحضارة الأولى في شروط تاريخية، وظروف نفسية، وعوامل اجتماعية، على أساس أنّ الحضارة كظاهرة اجتماعية لها قانونها الذي يحكمها، ولها ظروف ولادتها، وإنه لتفكير شديد - كما يقول مالك بن نبي - ذلك الذي يريد أن تكون الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في الظروف والشروط نفسها، التي ولدت فيها الحضارة الأولى.

³¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 68.

³² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 78.

³³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 142.

³⁴ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 142.

فعملية بناء الحضارة الأولى إنما جاءت نتيجة تحول نوعي عميق في وعي ونفسية وسلوكيات الأفراد، لأنّ تغييرا حدث في منظومتهم الثقافية، وعليه فهذا التحول الإيجابي للعالم الإسلامي في ظروفه وشروطه الثقافية والاجتماعية والسياسية هو الذي غاب وتحوّل إلى تحول سلبي من القوة إلى الضعف. ولكي تتم عملية التجديد الحضاري للأمة والإنسانية إنما يكون بحدوث التحوّل النوعي العميق في المنظومة الثقافية للإنسان المسلم خاصة والإنسان المعاصر عامة، على طريق الوعي السنني المتكامل، الذي يمتد لاستيعاب سنن الآفاق، وسنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التأيد جميعا في نسق معرفي ومنهجي كلي منسجم. ولهذا يرى بعض المفكرين أنّ مضغة الانطلاق المحورية في عملية البناء والتغيير الحضاري هي العالم الثقافي المسئول عن منح الفرد الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، عبر وسائط التربية والمنهج والسنن، التي إما أن تمنح بدورها الفرد والمجتمع معا فعالية الأداء الحضاري، وإما أن تضعف أدءهما³⁶.

وعليه فالبعد الثقافي هو مركز الثقل في العملية التغييرية الحقيقية، وأي إهمال أو تهميش أو تجاوز لها في تحليل وتفسير ومواجهة ضعف وقصور الأداء الحضاري، يعتبر انحرافا عن مركز الثقل في العملية التغييرية "والسبب بسيط هو أن السلوك الإنساني عندما نحلله نجده تركيبا ثقافيا معقدا في الأساس... العناصر والمكونات الثقافية، ذات الصبغة العقدية والمعرفية والمنهجية والاجتماعية، تظل لها السلطة المطلقة في تشكيل السلوك الإنساني في مستوياته الذاتية والاجتماعية والحضارية"³⁷.

انطلاقا من كل هذا فإن الثقافة تندخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه كما تعالج مشكلة الجماهير"فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي

³⁶ أنظر: كتابات الطيب برغوث في هذا الصدد.

³⁷ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 17-18.

حضارته، ويحمل أفكار النخبة، كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحدة، والأذواق المتناسبة³⁸. والمتتبع لتحليلات مالك بن نبي لمشكلات الحضارة يقف ولاشك على إشارته، بأنّ الثقافة هي جوهر الحضارة، وبالتالي يدرك بأنّ الأزمة الحضارية هي باستمرار محصلة أزمة ثقافية³⁹. وأي عملية إصلاح أو تجديد لا تنطلق من بناء المنظومة الثقافية للفرد والمجتمع والأمة تعتبر عملا في الفراغ لأنّ "المجتمع عندما يعجز عن تجديد منظومته الثقافية، في أبعادها العقديّة والفكرية والسلوكية، وفي ميادين الخبرة والمهارة التسخيرية أو الإنجازية تحديدا أصيلا وفعالا ومستمرًا، يرتقي بوعي المجتمع وأدائه الحضاري إلى مزيد من التطابق والإجترارية... ويجد نفسه في مواجهة مع ذاته وهويته من جهة، ومع أوضاعه المتقهقرة باستمرار من جهة لأخرى.

ويرجع مالك بن نبي الأزمة الثقافية إلى أزمة في التربية التي يوجد عليها الفرد والمجتمع، ويستند في ذلك كله إلى ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم في تشكيل قاعدة فكرية تربت في أحضانه، فتشعبت بروح الإسلام فهما وعملا وسلوكا، ولهذا يعتقد ابن نبي أنّ ميلاد أي مجتمع في التاريخ إنما يتم وفق الصورة الأولى التي تمت فيها ولادته "إنّ نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء إلى القانون نفسه، هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن بلغة أخرى حين قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"⁴⁰.

فالتربية هي العملية القادرة على تجديد المجتمع، وتأهيله للمواكبة والمنافسة والريادة الحضارية، وهي وحدها الكفيلة بتأهيل إمكانات الأفراد والمجتمع بشمولية واستمرارية، بغية

³⁸ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4 (الجزائر: دار الفكر، 1984)، ص 90.

³⁹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 39.

⁴⁰ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 40.

شحذ قدرات الأفراد التسخيرية، التي تمكنهم في النهاية من تحقيق توافقهم مع الذات، وتكيفهم مع المجتمع، وتعزز اقتدارهم التسخيري على مواجهة التحديات التي يفرضها الواقع. والأزمة التربوية هي باستمرار محصلة أزمة منهجية، لأنّ المنهج في جوهره يعني مجموعة القواعد المعرفية والإجرائية والأخلاقية المنتظمة التي تحكم عملية تخطيط البحث عن المعرفة السننية في عوالم الآفاق، وعوالم الأنفس، وعوالم الهداية، وعوالم التأييد، وتقود عملية استثمار هذه المعرفة السننية بعد ذلك في تغيير الواقع الإنساني، والارتقاء به إلى أعلى مستويات تكامله وانسجامه وأصالته، وفعاليته، وتمكين كل أفراد المجتمع والأمة من الاستفادة من هذه المعرفة السننية، في تحسين مستوى رقيها المعرفي والروحي والسلوكي والحضاري⁴¹.

وهذا ما عابه مالك بن نبي على جهود الحركة الإصلاحية الحديثة، التي تتوفر بحسبه على حسن النية لكن لا نشم فيها رائحة المنهج، فالفوضى والارتجالية، وعدم التنظيم والتخطيط، والعجز عن تحديد مضغ البدء، وضبط الأولويات في عمليات التجديد والتغيير، انعكست كلها سلبا على مردودية الحركة الإصلاحية، رغم ما بذلته من جهود ضخمة، مقارنة مع جهود الحركات التجديدية الأخرى في العالم غير الإسلامي كاليابان مثلا.

فإذا لم يتغير منهج التفكير وتصحيح منطلقاته فسوف يبقى العقل المسلم عاجزا عن النظر الناقد، والرؤية النافذة، وسوف يظل يراوح في حلوله ومحاولاته المتكررة الفاشلة على مر القرون والأجيال والدول، بل لعل هذه المحاولات الخاطئة لن تزيد الأمة إلى استنزافا وتدهورا وانهايارا.

وهذا الخلل في منهجية التفكير والعمل، والذي يعود في الأصل إلى غبش في الرؤية جعل العقل المسلم أسير قيود كبلته. ولهذا نجده يخطئ في التفاعل والتعامل والتواصل مع تاريخه حسنه وقبيحه، ومع حاضره، سوييه ومنحرفه، فهو "إما أن يقبل تاريخه وماضيه بعقده وانحرافات، وما تركته من بصمات على منهجه وفكره ومجتمعه، ومؤسساته، وإما أن يرفض

⁴¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 25-26.

كل تراثه وتاريخه وكل مقومات شخصيته وكيانه، لأنّ مسيرتها على مر الأجيال والقرون أصابها خلل، ولأنّ معالم شخصيته أصابتها أمراض وتشوهات وعلل، فكانت محصلة رؤيته المعتمة خلط بين الفكر والعقائد، بين الغايات والوسائل، بين الدين والتاريخ⁴².

فالحركة الإصلاحية كان ينقصها -بحسب مالك بن نبي- وعي منهجي، فلقد كانت قاصرة في منهجية التفكير والتدبير والتنزيل كما يرى علماء الشريعة، فتكوين مالك بن نبي في المدارس الغربية -بما تمتاز به من أحكام لمنهجية التفكير والإنجاز- جعلته يستفيد من هذه الميزة في تقييمه لجهود الحركة الإصلاحية. ولهذا اعتبر المنهج أساس النجاح في أي عمل، وهو الذي كان يقول دائماً "إنّ الخطأ المنهجي خير من الصواب الفوضوي" كما يقول في هذا الصدد "إنّ من الممكن أن تؤدي الحلول الجزئية إلى حل شامل للمشكلة... ولكن الطريق غير المنهجي هو أطول الطرق بلا شك، طريق المفاجآت التي تفاجأ العقل ذاته طريق السائح غير المتحقق من وجهته أو هدفه"⁴³.

فالمنهج الصحيح هو حماية لمضمون أي عمل تجديدي، وضابط له من الانحراف، ومحرك قوي لآليات عمله، محافظ على مكتسباته من كل ضياع أو هدر أو تبديد، فمن خلاله نستطيع تحديد أسباب اختلال التوازن بين الجهود المبذولة والنتائج المحصلة في محاولات الحركة التجديدية الحديثة والمعاصرة. "لقد كانت المحاولات في العالم الإسلامي بخاصة متفاوتة في عمقها، لأنها لا تستند على نظرية محددة للأهداف والوسائل، وعلى تخطيط للمراحل، فالواقع أن المصلح الإسلامي لم يهتم بأن يرسم برنامجاً لإصلاحه، مقدراً أن الزمن سيوفق في حل المشكلات (...). ولم يكن طموحه متوجهاً إلى الخلق والإبداع، أكثر مما متوجه إلى التقليد، فإذا حللنا جهوده وجدنا فيها حسن النية، ولكننا لا نجد فيها رائحة المنهج"⁴⁴.

⁴² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 25-26.

⁴³ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 40.

⁴⁴ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ط1 (دمشق: دار الفكر، 1978)، ص 78.

فالمنهج هو الذي يجعلنا ندرك كيفية ترتيب الأشياء وبنائها، ويمكننا من معرفة الواقع الحياتي للإفراد والجماعات والشعوب والإنسانية، وهو الذي يجعل معرفتنا بما صحيحة في حاجاتها وتطلعاتها وإمكاناتها وحتى تحدياتها، وهذا الذي ينقص الحركة التجديدية المعاصرة المفتقدة لروح المنهج كما يرى مالك بن نبي، فمداخل الإخفاق والفشل إنما أتت من هذا الخلل المنهجي. وهذا الخلل الواقع في جهد حركة التجديد الحديثة والمعاصرة، ناجم في الأساس عن غياب الوعي بمنظومة السنن، "منظومة سنن الأفاق، وهي التي تتضمن القوانين المسيرة للطبيعة الكيميائية والفيزيائية.. أو المادية العضوية عموماً؛ منظومة سنن الأنفس، وهي التي تتضمن القوانين التي تحكم سير حركة الفكر والنفس والمجتمع والحضارة والتاريخ؛ منظومة سنن الهداية، وهي التي تتضمن قوانين الهداية التي تحكم وتوجه عملية استثمار قوانين المنظومتين السابقتين، ومنظومة سنن التأيد، وهي التي تتضمن قوانين الاستعانة وطلب الولاية الربانية⁴⁵. فالفعل التربوي المنهجي السنني، هو أساس كل المستويات الأخرى من الأفعال التي تنتهي بالفعل الحضاري، كمصعب حتمي للجهد الإنساني كله، فإذا كان هذا الفعل التربوي فعلاً مؤسساً للوعي الصحيح بالدورة الوجودية للإنسان من ناحية، ومؤسساً كذلك للوعي بسنن التسخير، ومؤصلاً لفقهِ الاستثمار الشمولي لها من ناحية أخرى، فإنه سيكون لاشك فعلاً تجديدياً ذا نفس حضاري استخلافي مبدع.

رابعاً: بناء العالم الثقافي للإنسان هو أساس العمل التجديدي: وعند حديثنا عن عملية إصلاح العالم الإسلامي تواجهنا جملة من الأسئلة تقتضي ترتيباً منهجياً نوردتها كالآتي:

- من أين تبدأ عملية الإصلاح والتجديد؟
- هل تعطى الأولوية في عملية التغيير والبناء للفعل المعرفي النظري التجريدي الأكاديمي كما يعتقد البعض؟ أم للفعل السياسي النضالي الذي يتركز همّه الأول حول السلطة والحكم؟

⁴⁵ الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، ط1 (الجزائر: دار قرطبة، للنشر والتوزيع، 2004)، ص 42-43.

- أم للفعل الثوري الذي يحسم الموقف بالغلبة المادية القهرية العنيفة ؟
- أم للفعل الاجتماعي أو الاقتصادي الذي يحقق حاجات الناس ويستثمرها في تغيير أحوالهم؟

- أم للفعل الثقافي التربوي الذي يحرص على تأسيس الوعي، وتحويله تدريجيا إلى واقع سلوكي واجتماعي وحضاري ؟ أم لذلك كله متكاملا متوازنا مطردا؟⁴⁶.

يرى مالك بن نبي أن أولوية الأولويات في هذه الأسئلة الفرعية، هو إعطاء الفعل الثقافي التربوي المنهجي الأهمية الكبرى في عملية الإصلاح والتجديد، وهو موقف نابع من المنطق القرآني، الذي يطرح إشكالية التغيير الحضاري طرحا منهجيا جذريا وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد، الآية: 11). إذن عملية الإصلاح والتجديد ينبغي أن تخضع لجملة من المنظومات السننية التي تحكم الكون والإنسان والوحي، وهي التي من شأنها أن تسرع وتؤسس لأي نهضة في المجتمع، لأن "المشكلة الأولى ينبغي أن نذكر بصددها أن الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصة بها، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية"⁴⁷.

ويعتقد مالك بن نبي أن العالم الثقافي للإنسان المسلم ليس سويا، فهو خلط وفوضى في ميادين الفكرية والخلقية والسياسية، هو جمع من أفكار ميتة تعبر عن بقايا غير مصفاة، ومن أفكار مميتة أراد أن يستوعبها من العالم الأوروبي، ولهذا يقول "فإن تصفية الأفكار الميتة، وتنقية الأفكار المميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حقة"⁴⁸.

والمجتمع الإسلامي الحديث والمعاصر الذي يحاول التطلع إلى نوع من النظام والتنظيم، والاقتراب أكثر من إطار الأعمال الجماعية التي تجمع بين أصالة العبقريّة الإسلامية الخالصة

⁴⁶ الطيب برغوث، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية: تحليل لأهمية المعطى الثقافي والتربوي، ط1 (الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2004) ص 29-30.

⁴⁷ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 80.

⁴⁸ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 81-83.

مع العبقرية الحديثة، لن يتحقق له ذلك إلا إذا توفرت مجموعة من الشروط التي تمس بالدرجة الأولى عنصر الإنسان" لكن هذا يقتضي معرفة متعمقة للإنسان، وإمكانياته ونقائصه، وتقصيا واعيا للقيم الاجتماعية في الإسلام، فعلم النفس وعلم الاجتماع ضروريان إذن للكشف عن القيم الجديدة في النهضة الإسلامية... وعليه فلن نعرف الإنسان، ينبغي أن نعرف أنفسنا، وذلك أمر لا يتيسر لقادة العالم الإسلامي، إلا إذا قاموا بعملية استبطان دقيق لذواتهم واختبار قاس لضمايرهم...⁴⁹.

فإذا أردنا أن نعرف الإنسان من حيث كونه محركا للحياة الاجتماعية، فإن الشروط هي الشروط في الإطار الإنساني، تحتاج إلى قدر كبير من الدرس الواعي - يقول مالك بن نبي - فهو وحده الكفيل بالكشف عن العلاقات الخاصة التي تمثل التماسك داخل الشخصية الإنسانية في حركتها ونشاطها.

فأزمة العالم الإسلامي "منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، وإنما في الأفكار، وطالما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقية إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبهة العربية الإسلامية عضالا"⁵⁰، لأن مشكلة الأفكار ورثها عن إنسان ما بعد الموحدين من جهة، وعن المشروع الثقافي الاستعماري الذي ظل مجتهدا في تصدير ثقافته وأفكاره من جهة أخرى. فهو قد درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف، والحق أننا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية، كما درسنا هو، حتى صار يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية والدينية من حيث نشعر أو لا نشعر⁵¹.

وهاته الأزمة لها جانبان، جانب اجتماعي وجانب نفسي. ولكي نعالجها من كلا جانبيها، لا بد لنا من أن تكون لدينا فكرة عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي وتجري من جديد تركيب الشخص المسلم؛ بحيث يتماثل مع ذاته في المسجد وفي الشارع. فتجاوز

⁴⁹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ص 153-154.

⁵⁰ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 115.

⁵¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 159.

المشكلة في جوهرها يكون عبر تحديد سلبي وإيجابي، أما التحديد السلبي للثقافة فيتمثل في تجاوز كل الموروثات السلبية التي تعيق التقدم، أو المؤثرات الاستعمارية، وفتح الطريق للتراث النافع وإغنائه بالحركة العلمية النشطة، حتى تنطلق مسيرة الإصلاح في الطريق الموصل إلى بر الأمان، وهذا الدرس مأخوذ من تجارب الماضي ف"الحضارة الإسلامية نفسها قامت بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أنّ الحضارة الإسلامية قد جاءت بمهذين التحديدين مرة واحدة، صدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريق جديدة، وهذا العمل لازم اليوم للنهضة الإسلامية".

يضيف ابن نبي أنه لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو والانحراف، الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لمفهوم ثقافة، فعملية صناعة التاريخ إذن تنطلق من تشكيل هذا المحيط الثقافي السليم والفعال، الذي يمكن الفرد والمجتمع من أداء دورهما في التاريخ، مع العلم أنّ "صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث، تأثير عالم الأشخاص وتأثير عالم الأفكار وتأثير عالم الأشياء، لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص... وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة، يعد ضرورة أيضا"⁵².

هذه العوالم الثلاثة تعد ثابتا معرفيا وضابطا منهجيا في أي عمل تجديدي، و"أنّ كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي الأشخاص، والأفكار، والأشياء هي حقيقة ميتة"⁵³.

⁵² مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 27.

⁵³ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 100.

يحدث هذا عندما يكون محيط التربية اجتماعيا لأن هذه الأخيرة لا تعني شيئا إذا لم تكن وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعلمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ⁵⁴.

فكل عمل تجديدي يستلزم تغيير الإنسان بصورة تجعل حركته تتناغم مع منظومة سنن الأفاق، وسنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التأييد، وبشكل كثيف ومطرد، وتغيير الإنسان لا يمكن أن يتم إلا بفكر فعال يجيب على التساؤلات المطروحة على الإنسان والمجتمع، بحيث يزوده بالأدوات المنهجية التي تمكنه من كشف سنن الآفاق والأنفس والهداية، وإحسان الاستفادة منها. والعملية التجديدية لا تتوقف عند هذا الحد، بل لا بد أن يتحول الفكر إلى واقع اجتماعي وإمكان حضاري يجسد طموحات الإنسان ويشبع حاجاته الروحية والعقلية والجسمية⁵⁵. ولا يتم التأثير في العوالم الثلاثة التي أشرنا إليه سلفا، إلا من خلال ثلاثة مداخل جوهرية هي: توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال⁵⁶. فالمجتمع الذي يتمكن من بناء عالم ثقافي سليم وفعال ومتكامل ذاتيا، ومنسجم مع سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ويحسن استثمار إمكاناته المعرفية والبشرية والمادية على ضوء ذلك، يكون نموه في النهاية مطردا، وإنتاجه الحضاري مضاعفا، ويمتلك في نهاية المطاف القدرة على الإشعاع الحضاري والامتداد في التاريخ⁵⁷.

والتوجيه هو قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف وهو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، وهذا الجهاز حين يتحرك في الاتجاه الصحيح يحرك مجرى التاريخ نحو

⁵⁴ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 100.

⁵⁵ الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1(الجزائر: دار الينابيع، 1993)، ص 12.

⁵⁶ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 83.

⁵⁷ الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 12.

الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية ... فنحن في حاجة إلى أن نتصور النهضة من ناحيتين "تلك التي تتصل بالماضي، أي بخلاصة التدهور، وتشعبها في الأنفس والأشياء، وتلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل. يجب في بداية الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة"⁵⁸. أما عن التحديد الإيجابي للثقافة، فإن مالك بن نبي لا يقصد به وضع منهاج جديد للتفكير، وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي نراها ضرورية تماما للثقافة وهي: الدستور الخلقي والذوق الجمالي والمنطق العملي والصناعة⁵⁹.

إن هذا التحديد يراه مالك بن نبي غائبا في التعريفات التي يقدمها علماء الاجتماع للثقافة؛ إذ إن هذه التعريفات تشتمل فقط على فكرة عامة عن الثقافة "دون تحديد لمضمونها القابل لأن يدخله التعليم في سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع." وهذا ما نريد أن نحاوله هنا، حين نربط ربطا وثيقا بين الثقافة والحضارة⁶⁰.

يخلص مالك بن نبي في تحليلاته للثقافة إلى أنها ليست نظرية في المعرفة بقدر ما هي نظرية في السلوك. وبناء سلوك الإنسان الفردي والاجتماعي ليتناغم في خطاه مع سنن الآفاق والأنفس والهادية، يشكل هدفا محوريا لعملية بناء الحضارة. هذا السلوك الذي تغلب عليه ثقافة القول لا العمل، الثقافة التي تطالب بالحق وتهمل أداء الواجب.

فحركة تجديد الأمة تحتاج إلى منطق عملي يمكنها من استخراج أقصى ما يمكن من نتائج، لكونها تتوفر على إمكانات حضارية كبيرة، إن هي أحسنت توظيفها واستثمارها. لأن التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة كما يقول مالك بن نبي.

⁵⁸ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 86.

⁵⁸ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 87-88.

⁶⁰ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 88.

ولا يكفي أن يتوفر الأفراد على منطق عملي، ما لم يكمل بذوق جمالي، لأنّ الجمال هو الإطار الذي تتكوّن فيه أية حضارة. وهو ما يشير إليه القرآن الكريم والسنة النبوية في الكثير من نصوصهما، فالمسلم مطالب بإتقان عمله وأدائه بصورة حسنة، فالإحسان والإتقان حصلتان من خصال الثقافة الإسلامية.

إضافة إلى ذلك كله، ينبغي أن يتصف الأفراد بالحس الفني الإنجازي، بحيث تكون منظومتهم الثقافية مزودة بخبرات إنجازية راقية، تساعد الفرد والمجتمع على أداء مهماتهما على أكمل وأحسن صورة، لأنّ هذا من شأنه أن يساهم في تسريع الحركة التاريخية، فيحتزل الزمن، ويوفر الجهد والوقت. كل هذه العناصر المشكّلة للعالم الثقافي هي التي من شأنها أن تفعّل العملية التجديدية للمجتمع والأمة، وهي العناصر التي تشكّل مضمون الآية الكريمة "إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد، الآية 11).

تتحقق عملية الإصلاح والتجديد إذن، عندما تحتل المسألة الثقافية محور اهتمام المصلحين والمجدّدين، فتبدأ العملية التغييرية من النفس الإنسانية، كون هذه الأخيرة هي شرط كل تغيير اجتماعي، ومن أجل تغيير الإنسان لا بد من تغيير عالمه الثقافي كما يرى مالك بن نبي.